الطفل الجزائري والتلفزيون

في عصر الإنترنت وألعاب الفيديو

رشيدة بشبيش

كلية علوم الإعلام والاتصال

جامعة الجزائر 3

الطفل الجزائري والتلفزيون
في عصر الإنترنت وألعاب الفيديو

رشيدة بشبيش

الملخص

تناول المقال إشكالية مكانة التلفزيون في حياة الطفل عموما وفي حياة الطفل الجزائري خصوصًا في عصر تزايدت فيه المغريات التكنولوجية من ألعاب فيديو و شبكة أنترنت

وغيرها.

تمت معالجة هذا الإشكال من خلال تسليط الضوء على الجذور التاريخية للمشكلة إلى جانب عرض التراث العلمي الخاص بعلاقة الطفل بالتلفزيون عالميا وعربيا، وأخيرا تم التركيز على البعد الجزائري عن طريق تقديم معطيات اجتماعية واقتصادية وحتى سياسية حول المناخ الذي تطورت فيه علاقة الطفل الجزائري بالتلفزيون والوسائل التكنولوجية الأخرى.

في الأخير خلصت الدراسة إلى ضرورة تأطير علاقة الطفل الجزائري بالتلفزيون وكل التجهيزات الترفيهية الأخرى ،من خلال المرافقة وتنمية الحس النقدي وإنشاء ثقافة سمعية بصرية لدى الأطفال بتضافر جهود الأولياء والمؤسسات التربوية .

مقدمة

مع نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة استقبل عالم الاتصال مولودًا جديدًا، التكنولوجية الرقمية في ميدان الاتصال الجماهيري والمتمثلة أساسًا في شبكة الانترنت وتجهيزات الإعلام والاتصال الرقمية على نحو التلفزيون الرقمي الثنائي والثلاثي الأبعاد، لوحات رقمية، هواتف نقالة، ألعاب إلكترونية بأبعاد مختلفة ...إلخ.

واصبح معظم المحللين يسمون هذا العصر بعصر الاتصالات أو عصر الإعلام والاتصال بلا منازع، وبات الإعلاميون يرددون في كل مرة عبارة ماكلوهان الشهيرة " العالم أصبح قرية عالمية Global village"[1] والتي أطلقها في الستينات من القرن الماضي بمناسبة إطلاق أولى الأقمار الصناعية للبث التلفزيوني TELSTAR 1 الذي أطلق في 11 جويلية 1962 والذي ربط فرنسا بأمريكا من خلال بث مباشر لبرنامج تلفزيوني دام دقيقة و27 ثانية[2].

وقد دعم هذا الاختراع في ميدان الاتصالات دور التلفزيون في فترة الستينات حيث عرف تطورات متسارعة و كبيرة من حيث الكم والنوع مما جعله محط أنظار واهتمام الساسة ورجال المال، وعلماء الاجتماع وحتى المربين على حد سواء.

فتوالت البحوث والدراسات التي تسعى لفهم أدواره وأثاره لاستغلالها في أغراض مختلفة حيث بدأت في الخمسينات من القرن الماضي مع ظهور التلفزيون ولم تنتهي بعد.

فسحر التلفزيون طال الكبار وخاصة الصغار فقد حظيت دراسات الطفل والتلفزيون أكبر نسبة من ضمن الدراسات المتعلقة

بجماهير التلفزيون وما نشهده اليوم من تلاحق في الاختراعات التكنولوجية في ميدان الاتصال في الواقع ما كان ليتم لولا النجاح الذي عرفه التلفزيون والذي شجع العلماء وأصحاب المال لطرح مخترعات جديدة موجهة إلى الاستهلاك الجماهيري في الميدان الأسري من خلال اقتحام البيوت بمزيد من الاختراعات والتجهيزات الاتصالية.

وهكذا أطلت علينا تكنولوجية " الشاشات "التي تؤكد من جديد على زيادة مخاطبة حاستي السمع والبصر ومحاولة إضافة أبعادًا جديدة في شغل حواسنا من خلال البرامج التفاعلية عبر الوسائط الإعلامية المختلفة.

ولم تعد اليوم نتحدث فقط عن الظاهرة التلفزيونية بل اصبحنا كذلك منشغلين بالظاهرة التكنولوجية ككل لأن المشكل لم يعد في وسيلة واحدة ولا مجتمع واحد كذلك.

فقد كان الانشغال في الماضي خاص بالدول المصنعة التي اقتحمت التكنولوجية كل فضاءات الحياة فيها ، لكن اليوم أمتد هذا الانشغال إلى كل بقاع المعمورة حيث غزت الأقمار الصناعية فضاء العالم وأصبحت تنافس في عددها النجوم حيث بلغ عدد الأقمار الصناعية ما يقارب 3000 قمر صناعي[3].

فلم نعد نتكلم في عصر القرية العالمية عن القومية ولا عن الحدود الجغرافية لأن عالم الاتصالات لا يعترف بها.

والأسرة الجزائرية مثل كل الأسر في العالم تفاجأت بهذه الثورة الاتصالية التي دخلت البيوت بدون إستأذان وشغلت القلوب والعقول، وكان أول من بادر لتبنيها الصغار أي الأطفال، فحدث ما يمكن تسميته بغزو اتصالي للطفل الجزائري، وغالبا ما كان

الأبناء وخاصة الصغار منهم يسبقون أولياءهم في اكتشاف تقنيات تشغيل واستعمال هذه التجهيزات الرقمية الجديدة.

والحديث عن الغزو الاتصالي أو التكنولوجي يجرنا للتساؤل عن الأسباب التي جعلتنا كآباء وأمهات نتخوف من التكنولوجية وآثارها المحتملة على أطفالنا وكيفية تحريرهم من قبضتها، مع أننا نحن من يقتنيها لهم ونجلبها إلى البيوت ونصرف على ذلك أموالا طائلة، ثم نشتكي من خطورتها ونستنجد بغيرنا من محللين نفسانيين ومرشدين حتى يساعدونا على معالجة تبعات استعمال هذه التقنيات على أطفالنا.

فالإشكال القائم هو لماذا تعاظمت مكانة التلفزيون والتجهيزات الإلكترونية الأخرى من ألعاب وشبكة انترنت ...إلخ، في حياة الطفل عموما وفي حياة الطفل الجزائري خصوصًا ؟.

أصول وتاريخ المشكلة:

لقد كان لصدور كتاب روسو Rousseau عن التربية سنة 1767 أثرًا كبيرا على إعادة النظر في طرق التربية الحديثة حيث صارت هناك نظرة جديدة إلى طبيعة الطفولة وحاجاتها الخاصة، وبلغ تحول التفكير فيما يتعلق بالأطفال ذروته بكتابات فرويد ومريديه بنشوء فرع جديد تماما من فروع المعرفة ألا وهو علم نفس الطفل[4] وبذلك تأثرت ظروف رعاية الأطفال حيث اصبحت تركز على حاجات الأطفال، ونجح هذا الأسلوب الجديد في تنمية قدرات بدنية وانفعالية للطفل أتاحت له التفوق في نواح عديدة على أطفال الأمس. ولتحقيق إشباعات أفضل للحاجات الأولية للطفل تطلب الأمر من الوالدين مزيدا من الوقت والجهد اللذين تستلزمهما لتنشئة الطفل في العصر الحديث.

وهكذا وجد الأولياء أنفسهم عاجزين عن تطويع أطفالهم ذو المطالب الكثيرة والمستمرة وزادت أعباء رعاية الأطفال، فكان في ظهور التلفزيون فرصة للخروج من المأزق فبمجرد فتح جهاز التلفزيون يتغير الطفل تمامًا، ولو مؤقتا، من مخلوق نشيط ضوضائي شديد الرغبة في النشاط والتجربة إلى كائن طيع، هادئ، سهل الإرضاء المتزايد.

وباعتماد الأولياء على التلفزيون في إلهاء والتحكم في نشاط أطفالهم بدأوا ينسحبون من دورهم الفعال في تربية الأطفال ويقبلون بشدة على إقتناء أجهزة التلفزيون.

ففي أمريكا مثلا يقول ويلبور شرام أنه " لم يحدث أن انتشرت وسيلة جماهيرية للترفيه بين الناس كما حدث عندما انتشر التلفزيون. ففي بداية عام 1948 لم يكن في الولايات المتحدة إلا 100.000 جهاز وسرعان ما ارتفع العدد إلى مليون جهاز سنة 1949 وفي نهاية سنة 1959 أصبح العدد 50 مليون جهاز بمعدل سبعة أجهزة في كل ثمانية منازل[5].

وكان التلفزيون يدخل بسرعة في البيوت التي بها أطفال حيث كان معدل بيع الأجهزة للأسر التي بها أطفال تحت سن 12 أضعاف من الأسر بلا أطفال[6].

وابتداء من عام 1950 اضطر الملايين من الناس لأن ينظموا حياتهم من جديد وأن يخصصوا مكانًا مناسبًا لأجهزة التلفزيون في بيوتهم. وكانت البداية في الولايات المتحدة، الاتحاد السوفياتي بريطانيا وفرنسا ثم سرعان ما انتشرت أجهزة التلفزيون في كل أرجاء العالم حيث أصبح التلفزيون في مطلع 60 وسيلة اتصال مهيمنة في العالم.[7]

ومع ازدياد انتشار التلفزيون ازدادت التساؤلات حول إيجابياته وسلبياته في الميدان التربوي لأن الأولياء أصبحوا يعتمدون عليه كثيرًا ويحتاجون إليه لتنشئة أطفالهم.

التلفزيون والطفل بين المؤيد والمعارض:

أعقبت السنوات الأولى من دخول التلفزيون إلى البيوت في العالم عددا من الدراسات نالت فيها دراسات الطفل والتلفزيون حصة الأسد، ومن أولى الدراسات وأهمها تلك التي أجريت سنة 1954 من قبل هيلد.ت. هيملوايت وآخرون في بريطانيا بتكليف من هيئة الإذاعة البريطانية والتي شملت أربع مدن وتضمنت عينة من تلاميذ تتراوح أعمارهم ما بين 10 و14 سنة من بين المشاهدين وغير المشاهدين لبرامج التلفزيون لإجراء مقارنة بينهما.

وقد أكدت هذه الدراسة أن استعمال التلفزيون في بداياته لم يؤثر كثيرًا على الأطفال خاصة وأن حجم المشاهدة كان محدودا، كما كانت المشاهدة في معظم الأحيان تنم وسط جماعة أي وسط عائلي. وأظهرت أن مقدار ونوعية المشاهدة ترتبط بسن ومستوى ذكاء الطفل، وأبرزت خطورة تأثير التلفزيون على الأطفال الذين يشاهدون برامج الكبار حيث تُدخلهم مبكرا إلى عالم الكبار ومشاكلهم.

وأشارت الدراسة إلى أن التلفزيون في بداياته قد زاد من التلاحم الأسري لأنه شجع أفراد العائلة على البقاء في المنزل، وبالرغم من السلبية التي أوجدها التلفزيون لدى الأطفال الصغار إلا أنه قد حثهم على القراءة من خلال عرض سير حياة بعض الكتاب أو من خلال الروايات التي تصور على شكل أفلام[8].

من جهته قام ويلبور شرام بدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينات من القرن الماضي حاول من خلالها معرفة أثر التلفزيون على حياة الطفل الأمريكي من خلال استطلاع 5991 طفل بمساعدة فريق من الباحثين حيث شملت الدراسة أطفالا من جميع سنوات الدراسة في منطقة سان فرانسيسكو وخمس مناطق مشابهة في أنحاء أمريكا ومنطقتين متماثلتين في كندا إحداهما لم يدخلها التلفزيون عند إجراء الدراسة التي دامت سنتين (1958- 1960).

وأفضت النتائج إلى أن التلفزيون أحدث تعديلات في قضاء أوقات فراغ الطفل وكيفية استعماله للوسائل الجماهيرية الأخرى حين اقتطع التلفزيون مدة طويلة من الوقت المخصص للذهاب إلى السينما والاستماع إلى الراديو وقراءة الكتب والمجلات المصورة، كما أنه قلل من الزمن المخصص للعب وأحدث تأخيرا في وقت نوم الطفل وأصبح يتحكم في وقت فراغه.

كما تبين أن الطفل في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية يقضي معدل ساعتين أمام التلفزيون ثم يرتفع هذا المعدل إلى 3- 4 ساعات في نهاية المرحلة الابتدائية. ومع بداية الإعدادية تقل نسبة المشاهدة، وأن الطفل العادي يقضي مع التلفزيون أثناء 16 سنة الأولى من حياته مدة تعادل تلك يقضيها في المدرسة.

كما أكدت الدراسة على فكرة الصراع والعنف الذي يسود البرامج التلفزيونية التي يتلقاها الأطفال مما قد يجعلهم يكونون مفاهيم غير سوية حول عالم الكبار الذين يراهم دائما على الشاشة في ظروف مليئة بالصراع والتنافس بصفة متكررة مما قد يؤدي إلى تكوين شخصيات منحرفة ذات قيم معادية للمجتمع.

وحدد شرام وزملاؤه قدر الاستفادة من التلفزيون بخصائص الطفل العمرية، الذكاء، المستوى الاجتماعي ووضعية الأسرة.[9]

انطلاقا من هاتين الدراستين الرائدتين في مجال الطفل والتلفزيون توالت الأبحاث العلمية في كل أرجاء العالم وقد تباينت نتائجها بين المؤكد للدور الإيجابي للتلفزيون في حياة الطفل وبين المفند.

حيث ركز أنصار الاتجاه الأول أن التلفزيون ينمي الجانب الاجتماعي في الطفل بمشاركته الآخرين وتبادله لأطراف الحديث معهم عند المشاهدة، كما يعتبرون أن التلفزيون يصقل وجدان الطفل وأحاسيسه ويغمره بجو من الترفيه والتسلية، ويدرب حواس الطفل منذ الصغر على الاصغاء والمتابعة، ويوسع من خبرات الطفل فهو مصدر من مصادر المعرفة من خلال الوظائف التي يقوم بها كالتثقيف، التوجيه، التعليم والتربية، وله قدرة على تنمية حب الاستطلاع ويشجع تكون ونمو اللغة من خلال الاستماع لحوارات الآخرين، ويزوده بخبرات خارج حدود البيت والشارع والمدرسة، ...إلخ.

بالمقابل نجد أنصار الاتجاه الثاني يعارضون تزايد تواجد التلفزيون في حياة الطفل حتى ولو كان لأغراض تربوية لأنهم يرون أن التلفزيون مسؤول على عدد من الآثار السلبية سواء من الناحية الصحية أو الاجتماعية.

فمن الناحية الصحية يعتبرون التلفزيون يشجع على البدانة، الخمول، الكسل، يولد الشعور بالأرق والقلق ويضعف البصر.

ومن الناحية الاجتماعية تؤدي مشاهدة التلفزيون المبالغة إلى الانعزال، في هذا السياق تقول الباحثة الكندية (K.Taggart) تاجرت " أن التلفزيون لا يقرب بين أعضاء الأسرة إلا ماديا بتواجدهم في

مكـان واحـد أثنـاء المـشاهدة. كمـا أدت مـشاهدة التلفزيـون إلى الانقطاع على ممارسة الهوايات الأخرى كاللعب والقراءة. ويركز انصار هذا الاتجاه من كون القيم التقليدية التي ثبتها الأسرة في الأطفال آخذة في الاضمحلال لتحل محلها قيم تلفزيونية مشتقة من الأفلام والمسلسلات التي تعزز قيم العنف والجنس والجريمة حيث يعتبر إبراهيم إمام قيم التلفزيون " رُكام هائل بدون مغزى أو هوية، ترسخ في نفوس الأطفال قيم الباعة وشعارات التجار وأذواق الممثلين وأخلاق الممثلات وهكذا تسود بينهم قيم غريبة تتنافى مع قيم الأسرة والمدرسة [10].

وبين التهويل من أخطار التلفزيون والتهليل لفضائله برر اتجاه ثالث من الباحثين الذين يؤكدون على أن التلفزيون لا يعمل في فراغ بل هو مؤسسة من مؤسسات المجتمع يعمل من خلال شبكة من العلاقات المعقدة، فهو يتأثر ويؤثر في المجتمع. كما أكدوا أن دور التلفزيون السلبي يتزايد في ظروف خاصة مثل في حالات المبالغة في المشاهدة أي الإدمان التلفزيوني، إلى جانب الاستعمال غير الآمن كما هو الحال لدى الأطفال صغار السن الذين يتعرضون لبرامج التلفزيون بدون حسيب أو رقيب.

ونجد هذه الحالات في معظم الأحيان في أوساط الأسر الأمية التي لا تخطط للمشاهدة وتترك أجهزة التلفزيون تحت تصرف الأطفال. كما نجد هذه الحالات كذلك لدى الأسر ذات المداخيل المحدودة والتي تعجز على توفير الإمكانيات المادية التي تمكن أطفالها من قضاء أوقات فراغهم بوسائل ترفيهية أخرى لأنها مكلفة وغير متاحة فتعوض هذا العجز المادي بتوفير التلفزيون باعتباره استثمار طويل الأمد يشغل أوقات فراغهم طيلة سنوات الطفولة.

وتقول ماري وين في هذا السياق " أن التفسير الأوضح للجوء أباء الأطفال الصغار إلى التلفزيون يكمن في كونه الوسيلة الأسهل والأئمن للخروج من صعوبات رعاية الأطفال "[11].

وأكدت دراسة أجريت في فرنسا أن مشاهدة الطفل المتمدرس للتلفزيون غالبا ما توفر للأولياء مصاريف حارسته أو جليسته فنجد في فرنسا ما يقارب 2 مليون طفل لوحدهم أمام شاشة التلفزيون بعد خروجهم من المدرسة في انتظار عودة الوالدين من العمل [12].

ويرى أنصار الاتجاه الثالث أن عادات الطفل في المشاهدة تترجم في غالب الأحيان عادات الأولياء الذين يقدمون القدوة فيقلدهم الآباء لأن التقليد والاقتداء من سمات الطفولة ومن مراحل تطورها. حيث يعتبر عالم النفس " باندور " أن الأطفال يتعلمون من خلال عملية التقليد فإذا رأى الطفل أو أعجب بنموذج فهو يميل إلى التآلف معه والتوحد به وذلك لتأكيده ونسخ سلوكه، كما يرى أن لدى الأطفال الرغبة والقدرة على تقليد المسؤولين عنهم والذين يتفاعلون معهم أكثر.[13]

وانطلاقا من هنا يدعو الباحثون الأولياء إلى مزيد من الاهتمام بلسوكاتهم ومواقفهم تجاه التلفزيون حين يجمعون على أن " تربية الطفل تبدأ أولا بتربية الآباء والأمهات وتعليمهم وإعدادهم لمهمة تربية الأطفال "[14].

من جهة أخرى أكد الباحثون على ضرورة الاهتمام بالتأثير التراكمي للبرامج عوض الاهتمام بالتأثير الآني لأن التأثير التراكمي الناجم عن الترسبات الخاصة بمشاهدة الأفلام والبرامج المتتالية، قد تصبح ذات تأثير عميق وقوي وتترك بصماتها على

شخصية الطفل خاصة إذا كان أسلوب العرض الدرامي لهذه البرامج يثير إستجابة عاطفية وتوافقت القيم المعروضة مع احتياجات الطفل.

فالأطفال ليسوا فئة متجانسة لذلك فأثار مشاهدة التلفزيون تتأثر إلى حد كبير بما يجلبه الطفل معه أثناء المشاهدة من سمات وخصائص مميزة في: الجنس، السن، الوضع الاجتماعي والاقتصادي، الخبرة والتجارب السابقة، الاهتمامات، ... إلخ.

وانطلاقا من هذا الانشغال لم تعد الدراسات الخاصة بالطفل والتلفزيون تهتم كثيرا بتأثيرات التلفزيون على الطفل باعتبار أن الطفل ليس كائنا معزولا ولا يمكن أن نفعل فيه ما نشاء حيث يقول ولبر شرام " أن مشاهدة البرامج التلفزيونية لا تكفي لوحدها لإحداث تغييرات في الطفل ما لم تتضافر معها عددا من العناصر المشاركة كالبيئة الاجتماعية وخصائص الطفل العمرية وتجاربه السابقة[15].

وهكذا أصبحت معظم الدراسات الخاصة بالتلفزيون والطفل في الغرب تهتم كثيرا بدراسة استعمالات الطفل للتلفزيون والتي نادى لها شرام وآخرون قائلا " أنه من أجل فهم تأثير التلفزيون على الأطفال ينبغي عدم الاهتمام بما يفعله التلفزيون في الأطفال لأنه اتجاه عقيم ولا يأتي بنتائج مهمة، بل ينبغي الاهتمام بما يفعله الأطفال بالتلفزيون "[16].

البعد العربي للمشكلة

صادف اختراع التلفزيون وانتشاره في أوربا وأمريكا مرحلة استعمارية في الدول العربية التي كانت لم تستغل بعد، وبالتالي كانت المعلومات عن التجارب التلفزيونية الأولى في البلدان العربية قليلة إن لم نقل منعدمة.

فالظروف الاقتصادية والاجتماعية للشعوب العربية لم تكن لتسمح لها باقتناء أجهزة التلفزيون في بيوت لم تجهز أصلاً بمرافق الحياة الأساسية في مقدمتها الكهرباء.

لذلك كان الاهتمام العربي بالتلفزيون وآثاره على المجتمع وعلى الطفل متزامن مع دخول هذا الجهاز إلى البيوت على نطاق واسع ابتداء من السبعينات من القرن الماضي وهي الفترة التي استقلت فيها معظم البلدان العربية، ودخلت في صراع تنموي تطلب تسخير كل الوسائل لتدارك الوقت الضائع في شتى المجالات خاصة المجال التربوي الذي يُعد الكفاءات البشرية للنهوض بالمشاريع المختلفة.

وبذلك لما دخل التلفزيون إلى البيوت العربية كانت نسبة الأمية كبيرة وسط الأولياء فكان تعاملهم مع هذا الجهاز عفوي وعشوائي فأضحى الطفل العربي يُقبل على المشاهدة بمعدل 3 إلى 4 ساعات يوميا حتى خلال أيام الدراسة[17].

ففي دراسة أجرتها الجامعة الأمريكية بالقاهرة تبين أن الطفل المصري يقضي 22 ساعة أسبوعيا أمام التلفزيون وهذه المدة تفوق بكثير المدة التي يقضيها في اللعب أو المدرسة أو في الحديث مع الأولياء أو مراجعة الدروس[18].

وفي دراسة أجريت على عينة من أطفال البحرين أتضح أن متوسط الساعات التي يمضيها الطفل يوميا في مشاهدة التلفزيون بلغ حوالي 3 ساعات ونصف[19].

وهكذا يظهر جليًا أن سحر التلفزيون طال الطفل العربي والغربي على حد سواء، لكن الخطورة متفاوتة لأن البرامج التلفزيونية التي كان يشاهدها الطفل العربي لا تمت بصلة بواقعه وثقافته لأنها ببساطة برامج تم استيرادها مع أجهزة التلفزيون.

فالشعوب العربية بعد تحررها من الاستعمار السياسي وقعت في استعمار اقتصادي من خلال استيرادها لمعظم التجهيزات الإلكترونية وعلى رأسها التلفزيون إلى جانب وقوعها في تبعية إعلامية وثقافية من خلال استيراد البرامج التلفزيونية الموجهة للكبار والصغار على حد سواء بسبب عدم التحكم في تقنيات الانتاج السمعي البصري ونقص الكفاءات والتجهيزات اللازمة لذلك.

وقد تبنت عدد من الدول العربية منظور لرنر و شرام الخاص بالتحديث والمبني على استخدام وسائل الإعلام وفي مقدمتها التلفزيون والذي كان سائدًا في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. وينص هذا المنظور على " ضرورة استغلال الإعلام لإعطاء الجمهور نماذج من التنمية للإقتداء بها ولتخلق في الجمهور تعطشًا لمزيد من المعرفة والتغلب على الجهل " [20].

فكان بذلك التلفزيون من أبرز أدوات السياسات التنموية التي تبنتها الدول العربية التي كانت نسبة الأمية فيها مرتفعة فوجدت في التلفزيون مخرجا لها لإعلام الجماهير والاتصال بهم باللغة التي يفهمونها ويحبذونها وهي اللغة السمعية البصرية. فتوالت الأبحاث والتجارب لمعرفة كيفية استعمال البرامج التلفزيونية المختلفة لنشر التعليم في أوساط أطفال الريف والمدن ولتحقيق أهداف تربوية أخرى كتعليم قواعد المواطنة والتمدن للعيش في المجتمع الحديث.

الوضع في الجزائر

عندما استقلت الجزائر في 1962 كانت نسبة الامية تقدر بأكثر بـ 70 [21]% مما جعل استحالة خوض اية سياسة تنموية دون اللجوء إلى الوسائل المسموعة أو السمعية البصرية لأنها الوحيد الكفيلة بتوصيل المعلومات.

وهكذا فقد تبنت الجزائر بدورها وجهة نظر الدول العربية التي وجدت في التلفزيون وسيلة لتحقيق التنمية في شتى المجالات ولاسيما المجال التربوي.

فعمدت الجزائر في البداية على استيراد أجهزة الاستقبال التلفزيوني والذي بلغ عددها 70.000 جهاز عام 1968 ثم ما فتئ أن ارتفع إلى 200.000 جهاز سنة 1971.

وبعد سنة 1972 بذلت جهودا لتصنيع أجهزة التلفزيون مما ساهم في زيادة سريعة حيث بلغ عدد الأجهزة سنة 1975 500.000 جهاز[22]. واستمر تجهيز بيوت الجزائريين بأجهزة التلفزيون خلال فترة الثمانينات مع التركيز على استيراد شتى أنواع البرامج الأجنبية التي كانت تغطي معظم الشبكة البرمجية خاصة فيما يخص الفقرات المخصصة للصغار التي كانت تملأها برامج الرسوم المتحركة الأجنبية.

واستمرت هذه التبعية للمنتوج التلفزيوني الأجنبي إلى غاية التسعينات بل وتضاعفت أكثر حيث أصبح الطفل الجزائري في مطلع التسعينات يستقبل في بيته المجهز بالهوائيات العشرات من القنوات التلفزيونية الفرنسية والغربية ويقول في هذا الصدد بلقاسم مصطفاوي " أنه في عام 1991 تضاعفت القنوات والبرامج التلفزيونية الموجهة لمنكقة المغرب العربي والقادمة من أووربا وهذا تحقيقا وتلبية لإستراتيجية مالية وجيو سياسية "[23].

وبالطبع نال الطفل الجزائري حصته من هذا الوفد الجديد فزادت ساعات المشاهدة لأن القنوات الأجنبية تبت برامجها على مدار 24 ساعة عكس القناة المحلية التي كانت ساعات البث فيها محدودة، ضف إلى ذلك تنوع البرامج وجاذبيتها خاصة تلك الموجهة للأطفال والمعدة بذوق عالي وتقنيات سمعية بصرية مشوقة.

وأشارت دراسة أجريت على الطفل الجزائري والبرابول عام 1994 أن الطفل الجزائري يقبل على مشاهدة البرامج التي تبث عبر الفضائيات سواء كانت للكبار والصغار على حد سواء[24]. كما أظهرت دراسة أجريت بين 1991- 1992 على عينة 681 تلميذ تتراوح أعمارهم ما بين 11 و16 سنة أن نصف المبحوثين يشاهدون التلفزيون لمدة 3 و4 ساعات في اليوم وأن 51 % من المبحوثين لا يتدخل أوليائهم في تحديد نوع البرامج التي يشاهدونها [25].

والمشكل في الواقع الإعلامي للطفل الجزائري أن شدة إقبال الأطفال على المشاهدة لم تقابلها جهود من طرف المشرفين على القطاع السمعي البصري لإنتاج برامج جزائرية تخدم معايير وقيم التنشئة العربية والإسلامية التي تطبع المجتمع الجزائري.

فحتى جهود التعريب التي بذلتها الجزائر في مطلع الثمانينات كانت مشوهة ولا تفي بالغرض حيث عمدت الجزائر إلى استيراد رسوم متحركة وبرامج أطفال مدبلجة بالعربية لكن للأسف كانت هذه البرامج في غالب الأحيان أجنبية الصنع والمحتوى أي تحتوي على قيم غريبة بعضها لا يتماشى مع قيم المجتمع الجزائري. فهي برامج عربية اللسان وغربية المحتوى، فقد أظهرت دراسة أجريت حول الطفل الجزائري والرسوم المتحركة سنة 1996 أن الطفل الجزائري الذي يشاهد الرسوم المتحركة التي يبثها التلفزيون الجزائري لا يدرك أنها أجنبية فيميل إلى تبني القيم التي تحتويها لكونه يعتبر كل ما يبث باللغة العربية فهو عربي وبالتالي لا يتعارض مع تنشئته [26].

وزادت الظروف السياسية التي عرفتها الجزائر في فترة التسعينات من تعميق تعلق الطفل الجزائري بالتلفزيون؛ حيث لم يكن يسمح للأطفال بالخروج من البيت في جو الإرهاب والتقتيل

الذي كان سائدا في هذه الفترة، فلجأ الأولياء إلى سجن أطفالهم في البيوت رفقة أجهزة الترفيه الإلكترونية والتلفزيون لأنها آمنة أكثر خصوصا مع نقص مرافق الترفيه الضرورية والتي تكاد تنعدم في كل البلاد والموجودة تُعد على الأصابع وغير مهيأة لاستقبالهم.

وفي بداية الألفية الثالثة ومع استقرار الوضع السياسي وتحسن المستوى المعيشي للجزائريين ولاسيما مع ارتفاع أسعار البترول، عرفت الجزائر تغيرا في النسيج الديمغرافي والثقافي للعائلة الجزائرية.

فقد قلت نسبة الأمية حين بلغت سنة 2014 ما يقارب[27] 15,15 % كما تم تعويض العائلة التقليدية الممتدة بعائلة نووية فيما أكثر تعليما وأكثر اتجاها نحو توفير سبل التعليم والترفيه الحديثة لأبنائهم. كما زادت نسبة التمدن فانتقلت من 58,3 % عام 2002 إلى 66,3% سنة 2011[28]. إلى جانب خروج الأم للعمل لتغطية متطلبات الحياة المتزايدة.

وأصبحت الأسر الجزائرية تخصص أماكن في البيت للتجهيزات الإلكترونية المخصصة لترفيه الطفل تضم جهاز كمبيوتر ولوحة رقمية وألعاب إلكترونية إلى جانب جهاز تلفزيون خاص بالأطفال مجهز بجهاز DVD وأسطوانات سمعية بصرية ومتصل بشبكة من القنوات التلفزيونية العربية والأجنبية لا تعد ولا تحصى.

وهكذا أصبح الطفل الجزائري يقبل على كل ما هو "شاشة" سواء كانت شاشة التلفزيون وبرامجها أو شاشة الكمبيوتر أو شاشة ألعاب الفيديو وحتى شاشة الهاتف النقال لأن بعض الأسر اصبحت تقدم لأبنائها هواتف نقالة كجوائز في مناسبات مختلفة.

ويبدو أن هذا الإقبال والتعلق يتم تحت تواطأ الأولياء الذين فرضت عليهم أعباء الحياة تخصيص هذا الشكل من الترفيه

لأبنائهم فهو مسلي لأطفالهم ويريحهم كأولياء من ضرورة إيجاد نشاط يملء وقت الفراغ خاصة في المناطق التي تفتقر لمرافق التسلية والرياضة.

فاقتناء تجهيزات إلكترونية استثمار طويل الأمد يساعد على شغل الطفل في كل مراحل طفولته (من 3 سنوات إلى 16 سنة) وغير مكلف مقارنة بتكاليف المواصلات، اللباس، الأكل في حالة التنزه أو ممارسة نشاط رياضي في نادي معين فقد أظهرت دراسة أجريت حول الطفل الجزائري وألعاب الفيديو شملت 240 طفلا تتراوح أعمارهم بين 9 و12 سنوات أن الإقبال على ألعاب الفيديو أصبح ينافس اللعب مع الأصدقاء وممارسة الرياضة [29].

وبقي الانشغال الوحيد الذي يطرحه الأولياء في الجزائر هو إلهاء هذه الوسائل التكنولوجية لأطفالهم عن الدراسة.

لذلك نجدهم في فترات الامتحانات يستعملون هذه الوسائل مرة أخرى لتحقيق أهداف تربوية من خلال الجزاء والعقاب، فإذا حصل الطفل على نتائج مرضية يكافئ بمزيد من الألعاب الإلكترونية والبرامج التلفزيونية وكذلك بمزيد من ساعات الربط بالإنترنت، وإذا كانت النتائج سلبية سيحرم الطفل من كل هذه التسلية إلى حين تحقيق النتائج المرجوة ويتحمل الأولياء والأبناء على مضض هذه الفترة وتزيد فيها الخلافات والشجارات.

فالأسرة الجزائرية اليوم تخصص ميزانية مهمة للتجهيز الإلكتروني الخاص بالتسلية وقد أكدت دراسة إحصائية أجريت سنة 2012 شملت 9015 أسرة أن نسبة تجهيز البيوت الجزائرية بالهوائيات بلغت 97,3 % في المدن و93,8% في الأرياف، فسماء الجزائر

مفتوحة للبث الفضائي اللامحدود وبيوتنا مكتظة بأجهزة التلفزيون الذي اصبح عددها في البيت يماثل عدد أفراد الأسرة حيث بلغت نسبة تجهيز البيوت الجزائرية بالتلفزيون حسب الدراسة السابقة الذكر 98 %، كما أكدت نفس الدراسة أن الكمبيوتر بدأ يحتل مكانة ضمن تجهيزات البث حيث بلغت نسبته 31,3 % [30].

وهذه النسبة قد ترتفع أكثر مع فتح المجال للربط بالإنترنت وتوفر العروض المغرية التي تجعل الأسر تقبل على اقتناء أجهزة الكمبيوتر لربطها بشبكة الإنترنت التي لها خصوصية في الجزائر كونها مفتوحة على كل المواقع دون حصر أو قيد، فأطفال الجزائر لهم حرية التجول في العالم الافتراضي والتسلل إلى المواقع الإباحية لأنها غير محجوبة.

فالأولياء في الجزائر لا يرافقون ابناءهم في تجاربهم الأولى مع الوسائل الإلكترونية سواء كانت تلفزيون أو انترنت أو ألعاب إلكترونية بل يقتنون هذه التجهيزات لتحررهم من عبأ المرافقة والرعاية.

آفاق وحلول لمشكلة متجددة

تأكد مقولة " التعليم في الصغر مثل النقش على الحجر " أن العادات التي ترسخ في نفسية الفرد منذ الصغر تبقى منقوشة فيه وتشكل جزء من شخصيته عندما يكبر.

لذلك فتنشئة الطفل الجزائري في وسط هذا الزخم التكنولوجي لن تتم بطريقة صحيحة ما لم يدرك الأولياء والقائمين على شؤون الطفل بضرورة مرافقته وتأطيره لاستعمال هذه الوسائل الترفيهية والتثقيفية الحديثة.

فترك الأمور بهذا الشكل ينذر بانفجار الأسرة وبالتالي انفجار المجتمع الذي تكونه هذه الأسرة.

فالأولياء أصبحوا يستعملون التلفزيون والانترنت والألعاب الإلكترونية كوسيلة للعقاب والجزاء، ونادرا ما يهتمون بما يشاهده أطفالهم أو بما يفعلوه بكل التجهيزات التي وفروها لهم لأنهم ببساطة منشغلين بأمور أخرى.

فعلى الأولياء عوض الاهتمام بتوفير الوسائل المادية لأبنائهم تخصيص جزء من وقتهم لمرافقتهم في تجاربهم الترفيهية المختلفة، كمشاهدة التلفزيون رفقة الأطفال منذ السنوات الأولى من المشاهدة الهادفة التي تبدأ في سن الثالثة من خلال تعليمهم كيفية قراءة الصورة والتمييز بين الواقع والخيال وإبراز حيل الإخراج والتصوير وتنمية الحس النقدي للطفل المقبل على مرحلة جديدة في حياته وهي المشاهدة التلفزيونية التي تقدم له اشياء قد تفيده وأخرى قد تخيفه وأخرى قد تشوش تفكيره وتضره، فصحبة الأولياء تطمئنه وتساعده على فهم أحسن وتفادي سوء الفهم.

وبما أن التلفزيون ليس التجربة التكنولوجية الوحيدة التي بخوضها الطفل فعلى الأولياء مرافقته في تجاربه الأخرى كالولوج إلى عالم الأنترنت لأول مرة رفقة أحد الأولياء أو القائمين على شؤونه وتعليمه سبل الاستعمال الآمن إلى جانب مشاركة الطفل في ألعابه المختلفة لجعل التكنولوجيا وسيلة لمزيد من الاتصال الأسري وليس وسيلة للانعزال والانطواء والتشتت الأسري.

فاليوم نعيش واقع تكنولوجي اصبح حتمية تزداد رسوخًا وقوة في حياتنا وحياة أطفالنا فلم يعد بالإمكان الحديث عن إغلاق

النوافذ أمام التيارات القادمة والنفاذ من تأثيراتها لأن السرعة التي تتوالى بها هذه التطورات تتطلب منا استجابة موازية لإعداد ابناءنا لمستجدات هذا القرن وتحدياته المتمثلة في الثورة المعلوماتية المتدفقة والانفتاح الإعلامي غير المحدود.

ولا تكون هذه الاستجابة إلا من خلال التأكيد على ضرورة إعداد مشاهد أو مستعمل واعي للتكنولوجية مؤطر من طرف مدرسة تعلمه لغة التكنولوجية في إطار أكاديمي وبطريقة سوية عوض أن يتعلمها في إطار مشوه وعشوائي، ومؤطر كذلك من طرف أولياء واعون بمهمتهم الصعبة والمعقدة في تربية نشء في القرن الواحد والعشرين من خلال انتهاجهم أسلوب المرافقة والتأطير وتفادي المنع والتخويف.

الهوامش:

1- جيهان أحمد رشتي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة: دار الفكر العربي، 1978، ص 379.

2- http : www.Télésatellite.com/articles/les premières images de television par satellite, consulté le 17.12.2014.

3- http : www.meteocity.com/magazine/combien -y-a-il de satellite dans le ciel/, consulté le 17-12-2014.

4- ماري وين، الأطفال والإدمان التلفزيوني، ترجمة عبد الفتاح الصبحي، الكويت: عالم المعرفة، 1999، ص 173.

5- ويلبور شرام وآخرون، التلفزيون وأثره في حياة أطفالنا، ترجمة زكريا سيد حسن، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965، ص 23.

6- نفس المرجع ، ص23.

7- Judith Luzar, Sociologie de la communication de masse, Paris : Armand Colin, 1991, p :28.

8- هيلد .ت.هيملوايت وآخرون، التلفزيون والطفل، ترجمة أحمد سعيد عبد الحليم، القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1967، ص 51- 52.

9- ويلبور شرام وآخرون، مرجع سابق، ص 236.

10- إبراهيم إمام، الإعلام الإذاعي والتلفزيوني، القاهرة: دار الفكر العربي، 1979، ص237.

11- ماري وين، مرجع سابق، ص 175.

12- Ségolène Royal, Le ras le bol des bébé zappeurs, Paris : Edition Robert Laffont, 1989, p 57.

13- روبرت واطسون، هنري كلاي ليندجرين، سيكولوجية الطفل والمراهق، ترجمة داليا عزت مؤمن، القاهرة: مكتبة مدبولي، 2004، ص 168- 169.

14- لوسي يعقوب، الطفل والحياة، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1998، ص 148.

15- ويلبور شرام وآخرون، مرجع سابق، ص 237.

16 - Francis Balle, Medias et société, paris ; éditions MontChestien, 6eme édition, 1992, p 29.

17- بهية الحبشي، أطفالنا والتلفزيون، مجلة الطفولة العربية، الكويت: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، 2000، ص 46.

18- نفس المرجع، ص 46.

19- نفس المرجع، ص 46.

20- زهير إحدادن، مدخل لعلوم الإعلام والاتصال، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 86.

21/ نفس المرجع، ص 102.

22- عبد الحميد حيفري، التلفزيون الجزائري، واقع وآفاق، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 18.

23- Francis Balle, op.cit, p 550.

24- نورة بن بوزيد، الطفل والتفاعل مع برامج البرابول، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 1994، ص 183.

25- عبد الله بوجلال، الأطفال والتلفزيون في الجزائر، المجلة الجزائرية للإتصال، الجزائر، معهد علوم الإعلام والاتصال، العدد 9، ص 132، 140.

26- بشبيش رشيدة، الرسوم المتحركة في التلفزيون الجزائري: دراسة في القيم والتأثيرات، رسالة ماجيستر غير منشورة، معهد علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 1997.

27- http : www.APS.dz/Algerie/10893-1-Algerie- célèbre- lundi- la journée- International- d- Alphabétisation, édité le 07-09-2014/ consulté le 17/12/2014.

28- http:// www.ONS.dz/08depenses de consommation des ménages Algérien en 2011, consulté le 10-12-2014.

29- أحمد فلاق، الطفل الجزائري وألعاب الفيديو، دراسة في القيم والتأثيرات، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم علوم الإعلام والإتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2009.

30- http : //www.ONS.DZ/enquête sur l'emploi du temps ENET Algérie 2012/ consulté le 10-12-2014.